اليوم أنساك كما نسيتنى

١٦ عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى قالا:

قال رسول الله ﷺ:

« يُؤتَى بالعبدِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فيقول الله له :

أَلَمْ أجعل لكَ سَمْعاً وبَصَراً و وَلَداً ؟

وسخَّرْتُ لك الأنعامَ والحَرثَ ؟

وتركتُكَ ترأسُ وتَرْبَعُ ؟

فكنتَ تظنُّ أَنَّكَ مُلاَقيَّ يَوْمَكَ هَذَا ؟

فَيَقُول : لاَ. فيقُول لَهُ سُبْحانَهُ :

اليْوَمَ أَنساكَ كَمَا نَسِيتَنِى » (١).

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٢٨) وقال : « هذا حديث صحيح غريب »، وقد أخرج مسلم فى صحيحه (٢٩٦٨) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « فيلقى العبد فيقول : أى فُلْ، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى. قال : فيقول : أفظننت أنك ملاقىَّ ؟ فيقول : لا . فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى. ثم يلقى الثانى فيقول : أى فُلْ ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول: أى رب. فيقول : أفظننت أنك ملاقىَّ ؟ فيقول : لا. فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى. ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك. فيقول : يارب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصُمْت وتصدقت ويثنى بخير ما استطاع. فيقول : ها هنا إذن ثم يُقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك. ويتفكر فى نفسه . من ذا الذى يشهد علىَّ ؟ فيُختم على فيه. ويُقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقى. فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليُعذر من نفسه. وذلك المنافق، وذلك الذى يسخط الله عليه».

يقول الحق سبحانه :

﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾

(البقرة)

لا يحسب واحد من البشر أنه سيُفلت من الله ، فليس هناك مكان تستطيعون أن تختفوا فيه عن علم الله تبارك وتعالى ، فهو يعرف أماكنكم جميعاً واحداً واحداً ، وسيأتى بكم جميعاً ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ(١) الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً(٢) وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ (الكهف)

أى : أن الحق جَلَّ جلاله يريدنا أن نعرف يقيناً أننا لا نستطيع أن نفر من علمه ، ولا من قدره ، ولا من عذابه.. وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أن نفر إلى الله ، وأنه لا منجاة من الله إلا إليه.

ولذلك لا يظن كافر أو عاص أنه سيفلت من الله ، ولا يظن أنه لن يكون موجوداً يوم القيامة ، أو أنه لن يُحَاسب ، أو أنه يستطيع أن يختفى.

إن غرور الدنيا قد يركب بعض الناس ، فيظنون أنهم فى مَنَعَةٍ(٣) من الله،

---

(١) يوم نُسيِّر الجبال : أى تذهب من أماكنها وتزول وذلك يوم القيامة. سار : ذهب ومضى مختاراً أو مرغماً أو سيراً اضطرارياً لا إرادة فيه. فقوله ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ (القصص : ٢٩). مضى بهم مختاراً. وقوله ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ (الطور : ١٠) أى : تمضى خاضعة لأمر الله سيراً اضطرارياً لا إرادة فيه ولا اختيار. (بتصرف من تفسير ابن كثير ٣/ ٨٧ و القاموس القويم).

(٢) أى : بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد، ولا مكان يوارى أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية. قال مجاهد وقتادة : لا حجر فيها ولا غيابة. قال قتادة : ولا بناء ولا شجر. نقله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٨٧).

(٣) المنعة : الحماية والقوة. ومنه قوله تعالى ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ (الحشر : ٢) أى : ظنوا أن حصونهم حامية وواقية من الهزيمة.

وأنهم لن يلاقوه.

نقول لهم : إنكم ستفاجأون فى الآخرة حين تعرفون أن : الحساب حق ، والجنة حق ، والنار حق. ستُفَاجأون بما سيحدث لكم ، ومَنْ لم يؤمن ولم يسارع إلى الخير سيلقى الخزى[1] والعذاب الأليم.

إن الله ينصحنا أن نؤمن ، وأن نسارع فى الخيرات ؛ لننجو من عذابه ، ويقول لنا : لن يفلت واحد منكم ، ولا ذرة من ذرات جسده من الوقوف بين يدى الله للحساب.

ولذلك قال سبحانه فى ختام هذه الآية :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (البقرة)

أى : أن الله سبحانه وتعالى لا يُعجزه شىء ، ولا يخرج عن طاعته شىء ، إنه سبحانه على كل شىء قدير.

وذلك مصداق لقول الحق سبحانه :

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ[2] وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا[3] ﴿٩٥﴾ ﴾ (مريم)

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) خزى خزْياً : هان وافتضح وخجل واستحيا. قال تعالى : (لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾) (طه) أى : نهون ونفتضح.

(٢) الإحصاء : العَدّ والحفظ. وأحصى الشىء : أحاط به. ومن أسماء الله تعالى : المحصى، هو الذى أحصى كل شىء بعلمه فلا يفوته دقيق منها ولا جليل. (لسان العرب ـ مادة : حصى).

(٣) الفرد : ما كان وحده. وجاءوا فرادى، أى : واحداً بعد واحد. وقوله تعالى ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾ (مريم) أى : لا أحد معه من الأبناء أو الأعوان. ومثله : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ (الأنعام) أى : ليس معكم مال ولا أهل ولا صديق (بتصرف من القاموس القويم).

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ (١) وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (الأنعام)

فقول الحق : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ ... ﴿٩٤﴾ ﴾ (الأنعام)

أى : أن كلاً منكم يأتى إلى الله فرداً عما كان له فى دنياه من مال أو ولد أو أتباع ، بدليل قوله تعالى :

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ... ﴿٩٤﴾ ﴾ (الأنعام)

وخوَّله : أى جعل له خَدَماً من الأتباع ومن المريدين ، ومن المقدَّر والمضيَّق عليهم فى الرزق ، ومن العائشين فى نعمته.

جاء كل منهم منفرداً عَمَّا له فى الدنيا ، كما خلقكم الله أول مرة ، أى : كما دخلتم فى الدنيا.

وقول الحق سبحانه : ﴿جِئْتُمُونَا ... ﴿٩٤﴾ ﴾ (الأنعام)

أى : كأن الإنسان الذى أذنب يكاد يقدم نفسه للعذاب ، معترفاً أنه يستحق هذا العذاب ، إقراراً منه بالذنب ، فكأن الإنسان يبلغ منه الحزن على ما فعله ، والتوبيخ لنفسه التى انصرفتْ عن الحق فيقول لنفسه : أنت تستحقين العذاب.

فالذى يرجو لقاء الله يُعدُّ نفسه لهذا اللقاء ، ليستقبل ثواب الله ، لكن الذى لم يفعل أشياء تؤهله لثواب الله ، بل إنه عمل أشياء تؤهله لعقاب الله ، فكيف له أن يرجو لقاء الله ، إنه لا يرجو ذلك ولا يطلبه ولا يريده.

فالذى يرجو لقاء الله هو الذى يُعدّ نفسه لهذا اللقاء ، بأن يتقى الله فى أوامره ، ويتقى الله فى نواهيه ، ولذلك تمر على الإنسان أحداث شتى.

---

(١) خوَّله الله نعمة : ملَّكه إياها. وخوَّله المال : أعطاه إياه (لسان العرب ـ مادة : خ و ل).

وهى فى مقاييس اليقين بين أمرين اثنين : حسنات وسيئات. وكل واحد يعلم أية حسنات قد فعل ، وأية سيئات قد اقترف ، ولا يغش أحد نفسه ، فإذا ما كان حيّا فقد يجعله الأمل يُكذِّب نفسه ، ولا يرى إلا ما فات من المغريات.

أما إذا جاءته لحظة الغرغرة (١) فى الموت ، فهو يستعرض كل صفحته ، فإن كانت حسنة استبشر وجهه ، وإن كانت سيئة اكفهر (٢) وجهه ، ولذلك يُقال : «فلان كانت خاتمته سيئة ، وفلان كانت خاتمته متهللة».

وهذا كلام صحيح ، لأن الروح ساعة أن تُقبض فهى تترك الجسم على ما هو عليه ساعة فراقها ، فإنْ كان ضاحكاً ومُستبشراً ، فقد رأى بعضاً مما ينتظره من خير.

والإنسان وقت الغرغرة لا يكذب على نفسه ، فهو ساعة يمرض بمرض فهو يأمل فى العافية ، فإذا انتهى وقت انتهاء الحياة تُعرضُ عليه أعماله عَرْضاً سريعاً، فإن كانت الأعمال حسنة تنفرج أساريره ، لأنه يستشرف (٣) ما سوف يلقاه من جزاء.

كذلك الذين يرجون لقاء الله ، عملوا استعداداً لهذا اللقاء ، وينتظرون الجزاء من الله.

---

(١) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر» أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٣٢) والترمذى فى سننه (٣٥٣٧) وقال : حسن غريب. والغرغرة هى تردد الروح فى الحلق.

(٢) اكفهر : عبس وتجهَّم وجهه ، ورأى الناس فى وجهه انقباضاً لا أثر فيه من بشر ولا فرح (لسان العرب).

(٣) التشرف والاستشراف للشىء : التطلع و النظر إليه وحديث النفس وتوقعه. وأصل الاستشراف : أن تضع يدك على حاجبك وتنظر، وأصله من الشرف العلو كأنه ينظر إليه من موضع مرتفع، فيكون أكثر لإدراكه. (لسان العرب ـ مادة : شرف).

أما مَنْ لم يعملوا فهم يخافون من لقاء الله ولا يرجونه ، وسبب ذلك أنهم لم يعملوا للآخرة ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ۝٧ ﴾ (يونس)

وكأنهم قد اكتفوا بها ولم يرغبوا فى الآخرة.

وقد سَمَّى الله هذه الدار اسماً كان يجب بمجرد أن نسمعه ننصرف عنها ، فقال ﴿ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ۝٧ ﴾ (يونس)

ولا يوجد اسم أقل من ذلك ، والمقابل للحياة الدنيا هى الحياة العليا[١].

ولكن الإنسان تأخذه الغفلة ، فيغفل عن الدار الآخرة ويرضى بالحياة الدنيا[٢] ويطمئن قلبه بها ، ويضعف فى قلبه إيمانه بلقاء الله يوم القيامة.

ولكنه يصحو من غفلته وسَكْرته[٣] على حقيقة واقعة ، وهى أن وعد الله حق ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ۝٥٥ ﴾ (يونس)

فالحق سبحانه إذا قال ووعد، فلا رادَّ لما وعد به سبحانه ، لأنه مُنزَّه عن أن يُخلف الميعاد ، لأن عناصر كل الأحداث تخضع لمشيئته سبحانه ، ولا تتأبَّى

---

(١) قال رسول الله ﷺ : « والله ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم، فلينظر بم يرجع ؟ » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٥٨) ، وأحمد فى مسنده (٤ / ٢٢٩ ، ٢٣٠) ، والترمذى فى سننه (٣٣٢٣) من حديث المستورد بن شداد ، قال الترمذى : حديث حسن صحيح.

(٢) سُمِّيت الدنيا لدنوها ولأنها دَنَتْ وتأخرت الآخرة ، وكذلك السماء الدنيا هى القُرْبَى إلينا بالنسبة للسموات الأخرى. (بتصرف من لسان العرب ـ مادة : دنو).

(٣) السَّكْرة : الغفلة وذهاب العقل بسبب الانغماس فى الشهوات كالخمر والنساء وجمع المال من حلال ومن حرام والسعى إلى الجاه والسلطان . وهناك سكرة الموت : شدته وغلبته . وكذلك سكرة الهم والنوم ونحوهما (لسان العرب ـ مادة : سكر).

عليه ، ووَعْده حق وثابت ، فهو حين يعد يصير وعده مُحتَّم النفاذ ، ولكن الكافرين ينكرون ذلك.

إن الدين كله بكل طاعاته ، وكل منهجه قائم على أن هناك حساباً فى الآخرة ، وأن هناك يوماً نقف فيه جميعاً أمام الله سبحانه وتعالى ، ليحاسب المخطئ ويثيب الطائع ، هذا هو الحكم فى كل تصرفاتنا الإيمانية.

وبما أننا جميعاً سنلقى الله ، فلابد أن نعمل لهذا اليوم ، ولذلك فإن المؤمن لا يفعل شيئاً فى حياته إلا وفى باله الله ، وأنه سيحاسبه يوم القيامة ، ولكن غير المؤمن يفعل ما يفعل وليس فى باله الله.

وعن هؤلاء يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ (١) بِقِيعَةٍ (٢) يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (النور)

وهكذا مَنْ يفعل شيئاً وليس فى باله الله ، فسيُفاجأ يوم القيامة بأن الله تبارك وتعالى الذى لم يكن فى باله موجود ، وأنه جَلَّ جلاله هو الذى سيحاسبه.

فصاحب الالتزام بالمنهج يطمئن إلى لقاء ربه ، ويطمئن إلى جزائه ، والذى لا يؤمن بالآخرة أخذ من الله الحياة فأفناها فيما لا ينفع ، ثم بعد ذلك لا يجد شيئاً إلا الحساب والنار.

---

(١) السراب : ما يرى فى نصف النهار من اشتداد الحر كالماء فى الصحراء يلتصق بالأرض، وهو من خداع البصر، وقد سُمِّى السراب سراباً لأنه يسرب سروباً أى يجرى جرياً. أى : يتحرك حركة تخدع الرائى من بعيد، فيظنه ماء وهو ليس بماء ، بل خداع ضوئى وبصرى ناتج عن الحالة النفسية للشخص عند شدة عطشه ووجوده فى صحراء قاحلة، فأى حركة من بعيد يظنها ماء ، ويجرى إليها ، ليفاجأ بعدم وجود شىء.

(٢) القيعة : أرض واسعة مستوية لا تنبت الشجر. قال الفراء : القيعة جمع قاع . والقاع : ما انبسط من الأرض . قال تعالى : ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ (طه).

فالكافرون مَثَلَهُم مَثَلُ الظمآن الذى يسير فى صحراء ، ويُخيَّل له أن أمامه ماء ، ويمشى ويمشى فلا يجد ماء ، أما غير الظمآن فلا يهمه إن كان هناك ماء أو لا يوجد ماء ، فالظمآن ساعة يرى السراب يُمنِّى نفسه بأن المياه قادمة ، وأنه سيحصل عليها.

﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا . . . ﴿٣٩﴾ ﴾ (النور)

وليس المهم أنه لم يجده شيئاً ، بل يُفَاجأ :

﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ . . . ﴿٣٩﴾ ﴾ (النور)

إنه يُفَاجأ بأن الإله الذى كان لا يصدق بأنه موجود يجده أمامه يوم القيامة، فيُوفِّيه حسابه ، ويجزيه على عمله القبيح.

إذن : فإن عَمِل الإنسان عملاً فلينتظر الأجر ممن عمل له ، وإن عمل الإنسان عملاً وليس فى باله الله فعليه ألا يتوقع الأجر منه ، وعلى الرغم من ذلك يعطى الله لهؤلاء الأجر فى قانون نواميس[1] الحياة الكونية ، لأن مَنْ يحسن عملاً يأخذ جزاءه عنه.

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ[2] أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ (الأعراف)

---

(١) جاء فى لسان العرب أن الناموس « هو : وعاء العلم. والناموس : السر ». فنواميس الكون هى أسراره المودعة فيه.

(٢) حبطت : فسدت . قال الجوهرى : بطل ثوابه وأحبطه الله. وقال ابن الأثير : هو من قولهم حبطت الدابة حَبَطاً ، إذا أصابت مرعى طيباً فأفرطت فى الأكل حتى تنتفخ فتموت. (انظر : لسان العرب ـ مادة : حبط).

فالخير الذى يعمله غير المؤمن لا يُجزى عليه فى الآخرة ، لأنه عمل وليس فى باله الله ، فكيف ينتظر ممن لم يؤمن به ؟

إن الله سبحانه يجزى مَنْ آمن به وعمل من أجله ، ولكن مَنْ كفر بالله حبط كل عمله ، وهذا أمر طبيعى لأنك ما دُمْتَ قد عملت الخير وليس فى بالك الله ، فلا تنتظر جزاءً منه.

إن عملتَ للإنسانية أعطتْك الإنسائية ، وإن عملتَ للمجتمع أعطاك المجتمع ، وصنعوا لك التماثيل ، وأطلقوا اسمك على الميادين والشوارع ، وأقيمت باسمك المؤسسات ، وتحقق لك الخلود فى الدنيا ، وهذا هو جزاؤك.

ولكن إن كنت مؤمنًا بالله ، راجيًا ثوابه تجىء يوم القيامة لتجدَ يدَ الله ممدودة لك بالخير الذى قدَّمته.

أما الذين لا يرجون لقاء الله فهم يقولون :

﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ[1] .. (٢٤)﴾

(الجاثية)

---

(١) الدهر : الأمد الممدود. وقيل : الدهر : ألف سنة. والدهر : الزمان الطويل ومدة الحياة الدنيا. والهلاك : الموت والفناء وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : يؤذينى ابن آدم، يسبّ الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمر أقلب ليله ونهاره » وفى رواية : « لا تسبوا الدهر فإن الله تعالى هو الدهر » . قال ابن كثير فى تفسيره (٤ / ١٥١) : « قال الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة فى تفسير قوله ﷺ : لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » : كانت العرب فى جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خيبة الدهر فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبُّونه ، وإنما فاعلها هو الله تعالى ، فكأنهم إنما سَبُّوا الله عز وجل لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة. فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال ، هذا أحسن ما قيل فى تفسيره، وهو المراد والله أعلم، وقد غلط ابن حزم ومَنْ نحا نحوه من الظاهرية فى عدِّهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث » أ هـ.

ويقولون :

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (المؤمنون)

وإذا كان الإنسان لا يؤمن بالبعث ، فهو لا يؤمن بلقاء الله سبحانه ، لأن الذى يؤمن بالبعث يؤمن بلقاء الله ، ويُعدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح ، ولكن الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث سيُفاجأون بالإله الذى أنكروه ، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم.

إنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه الذى لم يكن فى باله ، فهو واحد من الذين لا يرجون لقاء الله، وهو ممن جاء فيهم القول:

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا(١) فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (السجدة)

وعلينا أن نعرف أن « الضلال » يأتى على معانٍ متعددة ، فقد يأتى الضلال مرة بمعنى الذهاب والفناء فى الشىء .

وهنا يتساءل المشركون : أبعد أن نذوب فى الأرض ، وتتفكك عناصرنا الأولية نعود ثانية، ونبعث من جديد ؟

وقد يأتى الضلال مرة أخرى بمعنى عدم اهتداء الإنسان إلى وجه الحق ، كما قال الحق وصفاً لرسوله ﷺ عندما رفض عبادة الأصنام ، وظل يبحث عن المنهج الحق :

---

(١) ضللنا فى الأرض : خفينا وغبْنا. وضلَّ الماء فى اللبن إذا غاب. فالضلال فى الأرض : الذهاب فيها، أى : إذا متْنا وصرْنا تراباً وعظاماً فضللنا فى الأرض، فلم يتبين شىء من خلقنا. (من لسان العرب ـ بتصرف).

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ (الضحى)

والذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يؤمنون بالبعث ، ولا بثواب أو عقاب ، لا يلتفتون إلى الكون الذى يعيشون فيه ، لأن النظر فى الكون وتأمُّل أحواله يُوجب عليهم أن يؤمنوا بأنها دورة من الممكن أن تعود .

وسبحانه القائل :

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ... ﴿١٠٤﴾ ﴾ (الأنبياء)

وعند الإعادة ، وفى يوم البعث يُفاجأ بمن كان ينكر البعث ونسى الله ، يقف بين يدى الله ، يُذكِّره ربُّه بما أنعم به عليه من السمع والبصر والولد.

ولذلك يقول ربُّ العزة هنا فى الحديث القدسى :

« ألم أجعل لك سمعاً وبصراً وولداً »

والسمع والبصر هما السيدان لملَكات[1] الإدراك ، لأن إدراك المعلومات له وسائل متعددة :

إن أردت أن تدرك رائحة فبأنفك .

وإنَ أردتَ أن تدرك نعومةً فبلمْسك وببشرتك.

وإنْ أردتَ أن تدرك مَذَاقَ شىء فبلسانك.

وإنْ أردتَ أن تتكلم فبأجهزة الكلام وعُمدتها اللسان.

وإنْ أردتَ أن تسمع فبأذنك.

---

(١) الملكات : جمع ملكة ، وهى المِلْك ، أى ما يملكه الإنسان من حواس ، ويُقال : فلان حسن الملكة إذا كان حسن الصنع إلى مماليكه . (راجع لسان العرب ـ مادة : ملك).

وكذلك تتجلّى لك المرائى بعينيك ، ثم تأتى إدراكات متعددة من الحواس، لتُكوِّن أشياء نسميها الخميرة ، توجد منها القضية العقلية الأخيرة.

فالطفل أمام النار يجد منظرها جميلاً جذاباً ، لكن ما إنْ يلمسها حتى تلسعه فلا يقرب منها أبداً من بعد ذلك ، لأنه اختبرها بحواسه ، فارتكزت لديه القضية العقلية وهى أن هذه نار مُحرقة ، واستقرّ هذا لديْه يقيناً.

وحينما أراد الحق سبحانه أن يقُصَّ علينا مراحل الإدراك فى النفس الإنسانية، ليربى الإنسان معلوماته قال سبحانه :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ[1] لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (النحل)

لذلك يقال « كما ولدته أمه » أى : لم يُعْطَ القدرة على استخدام حواسِّه بعد، ثم يجعل له الحق سبحانه الحواسَّ ، ويجعله قادراً على استخدامها.

ولم يذكر بقية الحواس ، بل جاء بالسيدين ، وهما السمع والبصر ، لأن آيات الكون تحتاج إلى الرؤية ، وإبلاغ الرسل يحتاج للسماع ، وهما أهم آلتين فى البلاغ ، فأنت ترى بالعين آيات الكون ومعجزات الرسل ، وتسمع بالأذن البلاغ بمنهج الله سبحانه وتعالى من الرسل .

وقد لفتنا الإمام على بن أبى طالب [2] رضى الله عنه إلى العجائب فقال :

---

(١) الأفئدة : جمع فؤاد ، وهو القلب ، سُمِّى بهذا لتوقُّده. والتفود : التوقد ، وقيل : الفؤاد غشاء القلب. والمفؤود الذى أصيب فؤاده بوجع . ورجل مفؤود : جبان ضعيف القلب. (لسان العرب مادة : فأد)

(٢) على بن أبى طالب : وهو أمير المؤمنين ، رابع الخلفاء الراشدين ، وابن عم النبى ﷺ وزوج ابنته فاطمة ، ولد بمكة (٢٣ ق هـ) ، من أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء ، توفى عام (٤٠ هـ) عن ٦٣ سنة .

« اعجبوا لهذا الإنسان ، ينظر بشحم ، ويتكلم بلحم ، ويسمع بعظم ، ويتنفس من خَرْم » [1].

فالصوت يطرق عظمة الأذن ، ويرنّ عن طبلتها ، ونرى بشحمة [2] العين ، وننطق بلحمة اللسان.

وأضاف بعض العارفين : « ونشمُّ بغضروف [3] ، ونلمس بجلد ، ونفكر بعجين ».

فالإنسان يُولد وكأن مُخَّه قطعة من العجين التى تعمل فى استقبال المعلومات من الكون وتخزينها فيه ، وهى التى ستكون ركيزة لتشكيل الفؤاد من بعد ذلك.

ونلحظ هنا مَلْحظاً يجب الانتباه إليه ، يدلنا على الفارق بين « الخَلْق » و« الجَعْل » ، و « المِلْك ».

فالحق سبحانه يقول هنا : « ألم أجعل لك سمعاً وبصراً » ، وذلك مثلما قال فى قرآنه :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (السجده)

ويقول سبحانه فى آية أخرى :

﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ... ﴿٣١﴾ ﴾ (يونس)

---

(١) أورده الشريف الرضى فى كتابه « نهج البلاغة » (٤ / ٤) .

(٢) شحمة العين : مُقلتها ، وقيل : حدقتها أو ما تحت الحدقة . أما شحمة الأذن فهو ما لان من أسفلها ، وهو ما يُعلَّق فيه القُرْط.

(٣) الغضروف ، والغرضوف بمعنى واحد ، وهو كل عَظْم لَيِّن رخص فى أى موضع كان ، وغرضوف الأنف : ما صَلُب من مارنه فكان أشد من اللحم وألين من العظم . (لسان العرب).

فالخلق قد عرفنا أمره ، وملكية كل شيء لله تعالى أمر مُلْزِمٌ في العقيدة ومعروف ، أما « الجعل » فهو توجيه ما خلق إلى مهمته.

فأنت تجعل الطين إبريقاً [1] ، والقماش جلباباً ، هذا على المستوى البشرى ، أما الحق سبحانه وتعالى فقد خلق المادة أولاً ، ثم جعل من المادة سمعاً وبصراً . فالخالق هو الله تعالى ، ومَنْ جعل هو الله تعالى ، ومَنْ مَلَك هو الله تعالى.

وهو سبحانه يُنبِّهنا إلى ذلك ، فالأشياء النافعة لابن آدم يخلقها الله سبحانه، ويجعلها ، ثم يُملِّكها له.

أما ذات الإنسان وأبعاضه من سمع وبصر وغيرهما ، وإن كانت قد خُلقت في الإنسان ، وجُعلت له للانتفاع بها ، ولكنها ستظل مِلْكاً لله ، يبقيها على حالها ، أو يخطفها أو يصيبها بآفة ، أو يُعطِّلها.

إذن : فهي خُلقت لله ، وجُعلت من الله ، وتظل مملوكة لله ، ويُصيِّرها كيف يشاء ، فدقّاتُ القلب والحب والكراهية والأمور اللا إرادية التي تعمل لصالح الإنسان هي مملكة الله.

فتدبير الأمر بيد الله ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُدَبِّرُ[2] الْأَمْرَ ... ﴿٣١﴾ ﴾ (يونس)

---

(١) الإبريق : إناء ، وجمعه بَاريق ، فارسي معرب ، وقال كراع : هو الكوز ومنه قوله تعالى : ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ (الواقعة) ، (راجع اللسان مادة : برق) ، وقال في القاموس القويم (١ / ٣) : « إبريق : إناء له خرطوم ، وقد تكون له عروة ».

(٢) دبَّر الأمر : نظر في عواقبه وأدباره ليقع على ما يرى فيه الخير له ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ .. ﴿٣﴾﴾ (يونس) أى : يقضيه ويقدره وينفذه على حسب حكمته وإرادته ، وقوله ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ (النازعات) هم الملائكة يدبرون أمور الخلق بإذن الله وبمقتضى حكمته وإرادته (القاموس القويم ١/ ٢٢١).

والتدبير هو عملية الإدارة لأى شىء ، حتى يؤدى مهمته ، وبالله ، مَنْ يُدير قلبك ؟ ومن يدير حركة أمعائك ؟ لتستخلص من الطعام ما يفيدك ، ثم تخرج ما لا يفيدك.

إياك أن تقول : إننى أنا الذى أدير ذلك .

وتقول : كنت طفلاً فى مرحلة الطفولة ، فهل كنت تدير حركة قلبك أو أمعائك ؟ ومَنْ الذى يدير حركة رئتيك ؟

إن الذى يديرها هو خالقها ، لذلك اطمئنوا على حركة أجهزتكم التى لا دَخْل لكم فيها ، لأن الذى خلقها فيكم قيُّوم (١) لا تأخذه سِنَة(٢) ولا نوم ، ولا يؤوده (٣) حفظ ذلك.

إذن : أما كان يجب أن نُرْهِف الآذان ، ونُعْمِل الأبصار ، لنرى قدرة الله سبحانه الذى وهب لنا كل تلك النعم من رزق وسمع وبصر وإحياء وإماتة وإحياء من ميت ، وتدبير الأمر كله ؟

وما دام الله تعالى هو الذى خلق ورزق ودبَّر الأمر ، فكيف تتركون عبادته وتتجهون لعبادة غيره ؟

---

(١) القيوم والقيام فى صفة الله تعالى وأسمائه الحسنى : القائم بتدبير أمر خلقه فى إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكنتهم، قال مجاهد : القيوم القائم على كل شىء . وقال قتادة : القيوم القائم على خلقه بآجالهم وأعمالهم وأرزاقهم . (لسان العرب ـ مادة : قوم).

(٢) قال تعالى : ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ۚ﴾ (البقرة) أى : لا يأخذه نعاس ولا نوم ، وتأويله أنه سبحانه لا يغفل عن تدبير أمر الخلق تعالى وتقدس . والسنة : نعاس من غير نوم . والسنة : نعاس يبدأ فى الرأس ، فإذا صار إلى القلب فهو نوم . (لسان العرب ـ مادة : وسن).

(٣) آده الأمر أوْداً وأوداً : بلغ منه المجهود والمشقة. وفى التنزيل العزيز ﴿ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ﴾ (البقرة) قال أهل التفسير وأهل اللغة معاً : معناه ولا يكرثه ولا يثقله ولا يشق عليه من آده يؤوده أوْداً . (لسان العرب ـ مادة : أود)

فما دام الحق سبحانه قد جعل السمع والأبصار والأفئدة مصادر تأتى منها ثمرة ، هى المعلومات وتمحيصها ، فالحق سبحانه يستحق الشكر عليها.

والشكر لا يكون إلا على النعمة ، فكأن وسائل الإدراك هذه مما تسمعه بأذنك ، أو تراه ببصرك ، أو تدركه فؤادك ، هى من نعم الله التى يجب أن نشكره عليها ، لأنها أعطتْنَا العلم الحسى بعد أن كنا لا نعلم شيئاً.

ومن العجيب أن الحق سبحانه رتَّب الحواس حسب ترتيب أداء وظيفتها ، لأن الإنسان منا إذا كان له وليد ، ثم جاء أحد بعد ميلاده ، ووضع أصبعه أمام عينه فإنه لا يطرف [1] ، لأن عينه لم تُؤَدِّ بَعْد مهمة الرؤية ، وعيون الوليد لا تؤدى مهمة الرؤية إلا بعد مدة من ثلاثة أيام إلى عشرة ، ولكنك إذا جئت فى أذنه وصرخت انفعل.

إن هذا دليل على أن أذنه أدَّتْ مهمتها من فَوْر ولادته ، بينما عينه لا تؤدى مهمة الرؤية إلا بعد مدة ، فأولاً يأتى السمع ، ثم يأتى البصر ، ومن السمع والبصر تتكون المعلومات ، فتنشأ عند الإنسان معلومات عقلية.

وهناك شىء آخر ، وهو أن السمع كما أنه يؤدى أول مهمة ، فهو الإدراك الوحيد فى النفس الإنسانية الذى يصاحب الإنسان فى كل أطواره ، لكن العين إذا نام الإنسان تنام معه وتغمض جفونه ، ولا يرى ، بعكس الأذن التى لا تغفل أبداً.

وذلك لأن الأذن بها الاستدعاء ، وما دام بها الاستدعاء لا بد أن تظل جاهزة لمهمتها.

---

(١) طرف بصره يطرف طرْفاً إذا أطبق أحد جفنيه على لآخر . والطرف : إصابتك عيناً بثوب أو غيره . يُقال : طُرِفَتْ عينه وأصابتها طرفة ، وطرفها الحزن بالبكاء . (لسان العرب ـ مادة : طرف).

ومن إعجاز البيان فى القرآن أنه حينما ذكر قصة أهل الكهف ، الذين كانوا فى كهف فى الصحراء ، والصحراء فيها أصواتُ وحوش وعواصف ورياح ورَعْد وبرق (١) .

فلو أن سمعهم بقى معهم مثل غيرهم من الخلق لفزعوا فى نومهم ، ولكن الحق سبحانه ضرب (٢) على آذانهم طوال هذه المدة التى مكثوها فى الكهف ، حتى لا يشعروا بما حولهم من أصوات مزعجة.

قال تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ (الكهف)

لأنهم ناموا أكثر من ثلاثمائة سنة ، بينما الواحد منا لو زاد فى ساعات نومه، فإن أقلَّ صوت يوقظه ، لأن الجسم يكون قد أخذ حاجته من النوم ، ولم يَعُدْ الإنسان مستغرقاً فى نوم عميق ، فأقل صوت يُوقِظه ، فما بالك بمن ينام ثلاثمائة سنة .

---

(١) الرعد : هو صوت يُحدثه احتراق أجزاء من الهواء بسبب انفجار كهربائى بين السحب المحملة بالتيارات الكهربية ، منها السالب ومنها الموجب ، فيتخلل الهواء ويصطفق بعضه ببعض فجأة، وبمقدار قوة الاحتراق يكون امتداد البرق واشتداد الرعد ، والرعد والبرق متلازمان يحدثان فى لحظة واحدة، ولكننا نرى البرق أولاً بسرعة الضوء ثم نسمع الرعد بسرعة الصوت ، فيتأخر الرعد بمقدار الفرق بين السرعتين وتساعد الرياح التى تحرك مياه السحب على توليد التيارات الكهربية التى تحدث البرق والرعد. قال تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ (الرعد) لأنه دليل على قدرته ومبشر بنعمته فهو يُسبح بلسان الحال. (قاله الأستاذ إبراهيم أحمد عبد الفتاح فى القاموس القويم ١/ ٢٦٨).

(٢) قال تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ (الكهف) قال الزجاج : منعناهم السمع أن يسمعوا ، والمعنى : أنمناهم ومنعناهم أن يسمعوا لأن النائم إذا سمع انتبه . أى أنه حُجِب الصوت والحس أن يلجا آذانهم فينتبهوا ، فكأنه قد ضُرِب عليها حجاب . (لسان العرب ـ مادة : ضرب).

لذلك كله ضرب الحق سبحانه على آذانهم فى الكهف طوال هذه السنين حتى لا يسمعوا.

هو سبحانه واهب الولد

« ألم أجعل لك سمعاً وبصراً وولداً »

فالله سبحانه هو الوهَّاب ، مالك السماوات والأرض ، خالق ما يشاء .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا[1] إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ (الشورى)

الأصل فى الذرية أنها تأتى من اجتماع الذكر والأنثى ، هذا هو القانون ولكن القوانين لا تعمل إلا بأمر الله ، لذلك يتزوج الرجل والمرأة ولا تأتى الذرية لأنه ليس القانون هو الذى يخلق ، ولكنها إرادة خالق القانون : إنْ شاء جعله يعمل ، وإنْ شاء يُبطل عمله .

الله سبحانه وتعالى لا تحكمه القوانين ، ولكنه هو الذى يحكمها.

---

(١) العُقْم : اليُبْس ، عقمت المرأة : لم تلد . فهى عقيم . قال تعالى : ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الذاريات) ، وعقيم يوصف به المذكر والمؤنث . قال تعالى : ﴿ويجْعَلُ مَن يشاءُ عَقيماً... ﴿٥٠﴾ ﴾ (الشورى) أى : لا يلد . وعلى المجاز وُصِفَتْ الريح التى لا خير فيها ، بل هى تهلك وتدمر ـ بأنها عقيم. قال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾ (الذاريات) : (القاموس القويم ٢/ ٣١).

وكما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على أن يجعل القوانين تفعل أو لا تفعل ، فهو قادر على أن يخرق القوانين .

خذ مثلاً قصة زكريا ـ عليه السلام ـ فقد كان زكريا يكفل[1] مريم ويأتيها بكل ما تحتاج إليه ، ودخل عليها ليجد عندها ما لم يُحضره لها[2] .

وسألها ، وهى القديسة[3] العابدة الملازمة لمحرابها[4] .

﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴿٣٧﴾ ﴾ (آل عمران)

فبماذا ردَّتْ مريم ـ عليها السلام ؟

---

(١) كفله يكفله كفلاً ، وكفالة : آواه ورعاه وربَّاه . قال ـ تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (آل عمران) أى : يرعاها ويربيها . والكفيل : الكافل والضامن ، قال تعالى : ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴿٩١﴾ ﴾ (النحل) أى : ضامنًا ورقيبًا وكافلاً يضمن ما تعهدتم به وما حلفتم عليه . (القاموس القويم ٢/ ١٦٧) .

(٢) قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو الشعثاء وإبراهيم النخعى والضحاك وقتادة والربيع بن أنس وعطية العوفى والسدى : يعنى وجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف ، قاله ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٦٠) ثم قال : « وفيه دلالة على كرامات الأولياء ، وفى السنة لهذا نظائر كثيرة » .

(٣) التقديس : التطهير والتبريك ، وتقدَّس أى تطهَّر . فالقديسة : التى تطهرت من الإثم ومن الدنس . وقد وصفها الله ـ عز وجل ـ فى قرآنه بأنها صدِّيقة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ... ﴿٧٥﴾ ﴾ (المائدة) ، والصديقة: صفة مبالغة ، أى: أنها كثيرة الصدق عظيمة التصديق .

(٤) المحراب : صدر البيت ، وأكرم موضع فيه ، والجمع : المحاريب ، وهو أيضًا الغرفة . وسُمِّى المحراب محرابًا لانفراد الإمام فيه ، وبُعْده من الناس . (لسان العرب مادة : حرب) بتصرف .

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾

(آل عمران)

إذن : فطلاقة قدرة الله لا يحكمها قانون .

لقد لفتت مريم زكريا ـ عليهما السلام ـ إلى طلاقة القدرة ، فدعا زكريا ربه فى قضية لا تنفع فيها إلا طلاقة القدرة ، فهو رجل عجوز وامرأته عجوز وعاقر ، ويريد ولدًا .

هذه قضية ضد قوانين الكون ، لأن الإنجاب لا يتم إلا وقت الشباب ، فإذا كَبِر الرجل وكَبِرتْ المرأة لا ينجبان ، فما بالك إذا كانت الزوجة أساسًا عاقرًا . لم تنجب ، وهى شابة وزوجها شاب ، فكيف تنجب وهى عجوز وزوجها عجوز ؟

هذه مسألة ضد القوانين التى تحكم البشر ، ولكن الله وحده القادر على أن يأتى بالقانون وضده ؛ ولذلك شاء أن يرزق زكريا بالولد .. وكان ، ورُزِق زكريا بابنه يحيى .

فالحق ـ سبحانه ـ هو الذى يحكم السبب ، وهو ـ سبحانه ـ الذى يخلق الأسباب ، ومتى قال: « كن » كان، بصرف النظر عن المادية المألوفة فى الكون .

وفى قضية الخلق أراد الله ـ جلَّ جلاله ـ للعقول أن تفهم أن مشيئته هى السبب ، وهى الفاعلة .

فالحق ـ سبحانه ـ جعل الذكورة والأنوثة هما السبب فى الإنجاب ، ولكنه جعل طلاقة القدرة مهيمنة[1] على الأسباب ، فيأتى رجل وامرأة يتزوجان ،

(١) المهيمن على الشىء : الرقيب عليه . هيمن عليه هيمنة : كان رقيبًا عليه، حافظًا له مسيطرًا =

ولكنهما لا ينجبان ، فكأن الأسباب نفسها عاجزة عن أن تفعل شيئًا إلا بإرادة المسبِّب ـ سبحانه .

إنه الحق الأعلى القادر على أن يخلق دون ذكورة أو أنوثة ، كخَلْقه لآدم ـ عليه السلام ـ ويخلق الحق ـ سبحانه ـ بواحد منهما ، كخَلْقه ـ سبحانه ـ لحواء، وخلق عيسى ـ عليه السلام ـ ويخلق الخالق الأعلى بالذكورة والأنوثة ، وهذه تنضم فى خَلْق جمهرة الناس .

وقد تجتمع الذكورة والأنوثة ، ولا يوجد إنجاب .

هذه هى إرادة الحق، فلا تَقُلْ : إن اكتمال عنصرى الذكورة والأنوثة هو الذى يحدث الخلق ؛ لأن الخلْق يحدث بإرادة الحق .

إننا كثيرًا ما نجد رجلاً يتزوج امرأة ولا تلد ، ويُشاع عنها أنها عقيم ، ويذهب الاثنان إلى معامل التحاليل ، ويقال أحيانًا : المرأة هى السبب فى عدم النسل ، أو : الرجل هو السبب فى عدم النسل .

ويفترق الاثنان، ويتزوج كل منهما بآخر ، فتلد المرأة من الزوج الجديد ، ويُولد للرجل من الزوجة الجديدة ؛ لأن المسألة كلها مردات الله ، وليست أمور الحياة مجرد اكتمال أسباب تُفرض على الله ، بل هو المسبِّب دائمًا .

فهو ـ سبحانه ـ القائل :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن

= عليه . قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الحشر) أى : الرقيب المسيطر ، والقرآن مهيمن على الكتب السابقة : أى رقيب عليها وحافظ لما فيها من الحق ومسيطر عليها يبين ما فيها من الحق وما أدخله الناس عليها من الباطل .

يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ (الشورى)

كم صورة إذن عندنا لمثل هذا الموقف ؟

- يهب لمن يشاء إناثًا .

- ويهب لمن يشاء الذكور .

- أو يُزوِّجهم ذكرانًا وإناثًا .

- ويجعل من يشاء عقيمًا .

هى أربعة مقاديـر تجرى على الرجل والمرأة ، وعندما يَهَبُ اللهُ المؤمن الإناث يكون سعيدًا ، وكذلك عندما يهبه الذكور .

وعندما يهَبُ الله لأسـرة أبناء من الذكور فـقط ، فالزوجة تحـنُّ أن يكون لها ابنة ، وإن وهب الحق - سبـحانه - لأسرة ذرية من الإناث فـقط ، فالمرأة والرجل يتمنيان الابن .

وإن أعطاهما الله الذكـور والإناث نجدهمـا قد وصلا إلى الحـالة التى تَقَرُّ[1] بها العيون عادة ، وهى الحالة التى يكون العطاء فيها فى القمة .

---

(١) قرَّت عينها : رأت ما كانت متشـوقة إليه فقرَّتْ ونامت . وقيل : أقرَّ الله عينك ، أى : بلَّغك أمنيتك حتى ترضى نفسك ، وتسكن عينك ، فلا تستشرف إلى غيره . (لسان العرب - مادة قرر) ومنه قوله - تعالى - عـن أم موسى - عليه السلام : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (طه) ، وقوله - تعالى : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ... ﴿٩﴾ ﴾ (القصص) .

وأخيرًا يأتى بالقَدَر الرابع الذى يُجريه على بعض خَلْقه ، وهو :

﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ... ﴿٥٠﴾ ﴾ (الشورى)

لماذا يُسَرُّ الإنسان بقدر الله حينما يهبه الله الإناث أو الذكور ، ويزداد السرور بقدر الله حينما يهبه ـ سبحانه ـ الذكور والإناث ؟

ولماذا لا تُسَرُّ إذن ـ أيها الإنسان ـ بقدر الله حينما يجعلك عقيمًا ؟!

أتعتقد أنك تأخذ القدَر الذى تهواه ، وترد القدر الذى ليس على هواك ؟

إن المواقف الأربعة هى من قدر الله .

والحق ـ سبحانه ـ يعطينا مثالاً من قصة زكريا ـ عليه السلام ـ على رغبة الإنسان فى أن يكون له ولد .

لقد أخبرته مريم ـ عليها السلام ـ أن الرزق الذى عندها هو من عند الله ، الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، إنه الإله القادر على أن يقول : كُنْ . فيكون .

هنا ذكر زكريا نفسه ، وكأن نفسه قد حدثته :

إذا كانت للقدرة طلاقة فى أن تفعل بلا أسباب ، وتعطى من غير حساب ، فأنا أريد ولدًا يخلفنى ، رغم أننى على كبر، ورغم بلوغى من السن عتيًا[1] ، وامرأتى عاقر .

---

(١) وذلك فى قول زكريا ـ عليه السلام ـ بعد أن أتته البشرى بغلام اسمه يحيى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾ (مريم) ، ومعنى عتا : أى أسنَّ وكبر وذهبت نضارته وغضارته .

إن مسألة الرزق الذى وجده زكريا كلما دخل على مريم هى التى نبَّهتْ زكريا إلى ما يتمنى ويرغب .

ونحن نعلم أن المعلومات التى تمر على خاطر النفس البشرية كثيرة ، ولكن لا يستقر فى بؤرة الشعور إلا الذى يصر عليه الإنسان .

وهناك فرْق بين معلومات توجد فى بؤرة الشعور ، ومعلومات فى حاشية الشعور، يتم استدعاؤها عند اللزوم .

فلما وجد زكريا الرزق[1] المنوَّع عند مريم وقالت له عن مصدره[2] :

---

(١) أورد السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ١٨٦) عن مجاهد أن هذا الرزق كان عنبًا فى غير زمانه . وفى رواية كان فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف . وفى رواية عن ابن عباس أنها كانت الفاكهة الغضة حين لا توجد الفاكهة عند أحد .

(٢) عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ أقام أيامًا لم يُطعم طعامًا حتى شق ذلك عليه ، فطاف فى منازل أزواجه، فلم يجد عند واحدة منهن شيئًا ، فأتى فاطمة فقال : يا بنية، هل عندك شىء آكله فإنى جائع ؟ . فقالت : لا والله . فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها فوضعته فى جفنة لها وقالت : والله لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسى ومن عندى ، وكانوا جميعًا محتاجين إلى شبعة طعام ، فبعثت حسنًا أو حسينًا إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها فقالت له : بأبى أنت وأمى، قد أتى الله بشىء قد خبأته لك . فقال ﷺ : هلمى يا بنية بالجفنة . فكشفت عن الجفنة فإذا هى مملوءة خبزًا ولحمًا فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله . فحمدت الله ـ تعالى ـ وقدمته إلى النبى ﷺ ، فلما رآه حمد الله وقال : من أين لك هذا يا بنية ؟ قالت : يا أبت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فحمد الله ثم قال : الحمد لله الذى جعلك شبيهة سيدة نساء بنى إسرائيل، فإنها كانت إذا رزقها الله رزقًا فسُئلت عنه: ﴿ قالت **هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴿٣٧﴾ ﴾ (آل عمران) أورده ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٦٠) ، والسيوطى فى الدر المنثور (٣/ ١٨٦) وعزواه لأبى يعلى الموصلى عن جابر ، وفيه ابن لهيعة .

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (آل عمران)

هنا[1] تساءل زكريا : كيف فَاتَنى هذا الأمر ؟

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن زكريا :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً[2] طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ (آل عمران)

إنها ساعة أن قالت له : إن الرزق من عند الله ، وأنه الحق الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، هنا أيقظت فيه القضية الإيمانية فجاءت أمنيته إلى بؤرة الشعور ، فقال زكريا لنفسه : فلنطلب من ربنا أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا[3] .

---

(١) أخرج ابن جرير الطبرى عن ابن عباس قال : لما رأى زكريا فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف عند مريم قال : إن الذى يأتى بهذا مريم فى غير زمانه قادر أن يرزقنى ولدًا، فذلك حين دعا ربه . أورده السيوطى فى « الدر المنثور » (٣/ ١٨٧) .

(٢) ذَرَّ الله الخلق فى الأرض : نشرهم ، وذرية الرجل : ولده . والجمع الذرارى والذريات . فالذرية : اسم يجمع نسل الإنسان من ذكر أو أنثى . (لسان العرب ـ مادة : ذرر) .

(٣) أخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن الحسن قال : لما وجد زكريا عند مريم ثمر الشتاء فى الصيف وثمر الصيف فى الشتاء يأتيها به جبريل قال لها : أنى لك هذا فى غير حينه ؟ فقالت: هذا رزق من عند الله يأتى به الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (آل عمران) فطمع زكريا فى الولد فقال : إن الذى أتى مريم بهذه الفاكهة فى غير حينها لقادر أن يصلح لى زوجتى، ويهب لى منها ولدًا ، فعند ذلك ﴿ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ (آل عمران) وذلك لثلاث ليال بقين من المحرم. قام زكريا فاغتسل ثم ابتهل فى الدعاء إلى الله قال : يا رازق مريم ثمار الصيف فى الشتاء ، وثمار الشتاء فى الصيف، هب لى من لدنك ـ يعنى من عندك ـ ذرية طيبة يعنى نقيًا . (أورده السيوطى فى الدر المنثور ٣/ ١٨٧) .

وما دام قد قال هذا القول فلابُدَّ أنه قد صدَّق مريم فى قضيتها ، بأن هذا الرزق الذى يأتيها هو من عند الله .

ودليل آخر فى التصديق ، هو أنه لا بد ، قد رأى أن الألوان المتعددة من الرزق التى توجد عند مريم ، ليست فى بيئتها ، أو ليست فى أوانها ، وكل ذلك فى المحراب .

هنا دعا زكريا ربه أثناء وجوده فى المحراب :

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً[1] إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)﴾(آل عمران)

إنه هنا يطلب الولد ، ولكن لا بُدَّ لنا أن نلاحظ ما يلى :

ـ هل كان طلبه للولد كما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة الدنيا ، أو « عزوة »[2] ، أو ذِكْرًا ؟

---

(١) الطيب : خلاف الخبيث . أرض طيبة للتى تصلح للنبات ، وريح طيبة إذا كانت لينة، ليست بشديدة وطُعْمة طيبة: إذا كانت حلالاً . وامرأة طيبة: إذا كانت حَصَانًا عفيفة ، وكلمة طيبة : إذا لم يكن فيها مكروه ، وبلدة طيبة: أى آمنة كثيرة الخير ، ونكهة طيبة، إذا لم يكن فيها نتن ، ونفس طيبة بما قُدِّر لها: أى راضية ، وطعام طيب للذى يستلذ الآكل طعمه . (لسان العرب مادة طيب) .

(٢) العزوة : الانتماء إلى قوم أو عشيرة . والعزوة : اسم لدعوى المستغيث ، وهو أن يقول : يا لفلان، أو يا للأنصار ، أو يا للمهاجرين . (لسان العرب ـ مادة عزو) .

لا ، إنه يطلب الذرية الطيبة ، وذِكْر زكريا الذرية الطيبة تفيد معرفته أن هنالك ذرية غير طيبة .

وأورد الحق ـ سبحانه ـ قول زكريا :

﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ(١) الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ(٢) الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ(٣) مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ (مريم)

---

(١) الوهن : الضعف فى العمل والأمر، قال تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴿٤﴾ ﴾ (مريم) أى: ضعف ، كناية عن العجز وكبر السن ، وإظهار الشكوى من الضعف للاسترحام.

(٢) اشتعل الرأس شيبًا : أى كَثُر شيب رأسه ، ودخل فى قوله الرأس شعر الرأس واللحية، لأنه كله من الرأس (لسان العرب ـ مادة شعل) وشعل النار : أشعلها وألهبها . واشتعلت النار : انتشر لهبها . قال تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴿٤﴾ ﴾ (مريم) استعارة مكنية ، والمعنى : انتشر فيه الشيب كالنار فى الحطب . (القاموس القويم ١/ ٣٥٠) .

(٣) الموالى : ورثة الرجل وبنو عمه . قال أبو الهيثم : المولى على ستة أوجه :

ـ المولى : ابن العم والعم والأخ والابن والعصبات كلهم .

ـ المولى : الناصر .

ـ المولى : الولى الذى يلى عليك أمرك .

ـ الولى : مولى الموالاة ، وهو الذى يُسلم على يدك ويواليك .

ـ المولى : مولى النعمة ، وهو المعتق أنعم على عبده بعتقه .

ـ المولى : المعْتِق لأنه ينزل منزلة ابن العم يجب عليه أن تنصره وترثه إن مات ولا وارث له .

(لسان العرب ـ مادة : ولى) .

أى : أن يكون دعاء لإرث النبوة ، وإرث المنهج ، وإرث القيم ، لهذا طلب زكريا الولد ، لقد طلبه لمهام كبيرة .

لقد طلب زكريا ـ عليه السلام ـ وليًا يرثه ، والأنبياء لا تُورث منهم أموال[1]، إنما يُورِّثون العلم والحكمة .

إذن : فقد طلب زكريا ـ عليه السلام ـ أن يرث ابنه الحكمة منه ، ويرث من آل يعقوب ، وأن يجعله الله رضيًا[2] .

فلو كان الأنبياء يُورِّثون المال ، لكان البعض قد فهم أن طلب زكريا للابن كى يرثه فى المال ، لكن الحق ـ سبحانه ـ أراد لأنبيائه ألاّ يُورِّثوا المال ، بل يُورِّثون العلم بمنهج الله ، وقد طلب زكريا الابن لتثبيت منهج الله فى الأرض .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٠٩٤) وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٥٧) من حديث أبى بكر الصديق أن رسول الله ﷺ قال : « لا نُورث ، ما تركناه صدقة » .

(٢) قال ـ تعالى ـ عن زكريا ـ عليه السلام ـ أنه دعا فقال : ﴿ ... فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ ﴾ (مريم) وقد أورد السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٤٨١) أن ابن أبى حاتم أخرج عن محمد بن كعب القرظى قال : قال داود ـ عليه السلام ـ « يا رب هب لى ابنًا » فولد له ابن خرج عليه ، فبعث إليه داود جيشًا فقال : « إن أخذتموه سليمًا فابعثوا إلىّ رجلاً أعرف السرور فى وجهه ، وإن قتلتموه فابعثوا إلىّ رجلاً أعرف الشر فى وجهه » فقتلوه فبعثوا إليه رجلاً أسود ، فلما رآه عرف أنه قتل ، فقال : ربِّ سألت أن تهب لى ابنًا ، فخرج علىّ ؟ فقال : إنك لم تستثن . قال محمد بن كعب: لم يقل كما قال زكريا ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ (مريم) .

لقد أراد الله للأتقياء والأنبياء أن يكون لهم من الذرية أبناء ، ليرثوا المنهج السلوكى ، ويكونوا مُثُلاً طيبة للناس يقتدون بهم .

إذن : فالمؤمن يجب أن تكون ذريته قدوة سلوكية .

***

نعمة التسخير :

« وسخرت لك الأنعام والحرث »

فخَلْق الأنعام فى ذاته نعمة ، وتمليكها لنا من الله نعمة أخرى ؛ لأن فى الكون مخلوقات كثيرة لا نستطيع أن نملكها لأنها متوحشة ، لكن هذه الأنعام مستأنسة ومسالمة ومُسخَّرة .

والحق ـ سبحانه ـ يقول :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا(١) لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ(٢) وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٨٠) : « أى جعلهم يقهرونها وهى ذليلة لهم ، لا تمتنع منهم ، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه ، وذاك ذليل منقاد معه ، وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير » .

(٢) الرَّكوب (بفتح الراء) : ما يُركَبُ . وقال الفراء : اجتمع القراء على فتح الراء ، لأن المعنى: فمنها يركبون. قال الأصمعى : الرَّكوبة : ما يركبون . والرَّكوب ، والرَّكوبة من الإبل : التى تُركب ، وقيل : الرَّكُوب كل دابة تُركب . (لسان العرب ـ مادة ركب) .

﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (يس)

والأنعام هى النعمة البارزة فى أشياء متعددة ؛ لأننا نأخذ منها أشياء كثيرة لحياتنا ، فنشرب لبنها ، ونأكل لحمها ، ونستفيد بصوفها وجلودها ، كما تحمل أثقالنا[1] من مكان إلى مكان .

والتسخير معناه التذليل ، ولا تتمرد ظواهر الكون على الإنسان ، وإذا كانت هناك ظواهر فى الكون تتمرد بقدر الله ، مثل الفيضانات والبراكين والكوارث الطبيعية .

نقول : إن ذلك يحدث ليلفتنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أن كل ما فى الكون لا يخدمنا بذاته ، ولا بسيطرتنا عليه ، وإنما يخدمنا بأمر الله له ، وإلا لو كانت المخلوقات تخدمك بذاتك ، فاقدر عليها حينما تتمرد على خدمتك .

وكل ما فى الكون خاضع لطلاقة قدرة الله ، حتى الأسباب والمسببات خاضعة لطلاقة القدرة الإلهية ، فالأسباب والمسبّبات فى الكون لا تخرج عن إرادة الله .

---

(١) الأثقال : الأحمال . جمع حِمْل ، وقد قال ـ تعالى ـ عن الأنعام : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ (النحل) قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٢/ ٥٦٢) : « هى الأحمال الثقيلة التى تعجزون عن نقلها وحملها ، وذلك فى الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك ، تستعملونها فى أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل » .

لذلك إذا تمرَّد الماء بالطوفان ، وتمردت الرياح بالعاصفة ، وتمردت الأرض بالزلازل والبراكين ، فما ذلك إلا ليعرف الإنسان أنه ليس بقدرته أن يسيطر على الكون الذى يعيش فيه .

واقرأ قوله ـ سبحانه :

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ (يس)

فالإنسان عاجز عن أن يُخضِع حيواناً إلا بتذليل الله له ، ومن العجيب أنك ترى الحيوانات تدرك ما لا يدركه الإنسان فى الكون ، فهى تحس بالزلزال قبل أن يقع، وتخرج من مكان الزلزال هاربة ، بينما الإنسان لا يستطيع بعقله أن يفهم ما سيحدث .

وعملية التذليل مهمة جدًا ؛ لأن أشياء كثيرة خلقها الله ، وقد تملكها ، لكنها غير مذللة لك فتتعبك .

ولنضرب لهذا مثل الجمل والثعبان ، فالجمل الضخم القوى يمكن أن يقوده طفل صغير ، وهو يحمل الأحمال ، ويسير خلفه طائعًا .

لكن الثعبان لو ظهر يفزع كل الموجودين ، حتى لو كان الثعبان صغيرًا ، وذلك لأنه غير مُذلّل للإنسان .

كذلك البرغوث الضعيف لو وُجِد فى فراشك يحرمك من النوم ، مع أنه ضعيف حقير ، وأنت قوى لأنه غير مُذلَّل لك .

إذن : خَلْق الأنعام ليس هو النعمة ، ولكن فيها خلق ومِلْك وتذليل ، فالله خلقها ومَلَّكها لنا ، وذلَّلها لخدمتنا ومنفعتنا .

ولولا هذا التذليل ما استطعنا أن نستفيد منها .

ولذلك حينما تحدَّث الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن دواب الركوب من الخيل والبغال[1] والحمير ذكر مهمتها الأساسية فى الركوب ونقل الأثقال .

ثم أضاف إلى ذلك أن فى هذه الدواب جمالاً يسرُّ الناظرين ممَّن لا يملكون هذه النعم .

قال تعالى :

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ[2] وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾ (النحل)

فهو ـ سبحانه ـ لا يعطينا ضروريات الحياة فقط ، ولكن أيضًا يعطينا الكماليات .

---

(١) البغال : جمع بغل ، وهو ابن الفرس من الحمار ، وهو لا يلد ، فالشأن فى البغل العقم ، قال تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۝٨ ﴾ (النحل) ، وذكرها القرآن بين الخيل والحمير إشارة إلى تولُّدها منهما . (القاموس القويم ١/ ٧٦) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/ ٣٧٩٥) : « وذلك فى المواشى حين تروح إلى المراعى وتسرح عليه . والرواح : رجوعها بالعشى من المرعى ، والسراح بالغداة » .

والحق ـ سبحانه ـ يقول :

﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا[1] .. ﴿١٤٢﴾ ﴾ (الأنعام)

فبعد أن تكلم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن نعمه علينا فى الزراعة ، ونعمه علينا فى الماشية قال :

﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ .. ﴿١٤٢﴾ ﴾ (الأنعام) .

وهى الإبل والبقر والغنم (حمولة) والحَمُولة هى التى تحمل ، فيقال : «فلان حَمُول » أى : يتحمل كثيرًا .

والذى تحمله فوق ظهرها يسمى « حمُولة » .

والإبل نحمل عليها الرِّحال وكل متطلباتنا .

وفى الحديث عن الأنعام ، جاء بالحمولة والفَرْش ، ويأتى أيضًا بحديث عن الرزق والطعام ؛ لأننا نأكل لحمها وألبانها ومشتقات الألبان كلها ، وهكذا تتعدد المنافع ، فهى تحملنا ، ونأخذ من أصوافها وأوبارها[2] وشعورها الفرش ، والوبر هو شعر الجمال ، والصوف هو شعر الغنم :

---

(١) قال ابن عباس : الحمُولة كل ما حمل من الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير ، والفرش : الغنم . وقال ابن زيد : الحمولة : ما يُركب ، والفرش : ما يؤكل لحمه ويُحلب مثل الغنم والفصلان والعجاجيل ، سميت فرشًا للطافة أجسامها وقربها من الفرش ، وهى الأرض المستوية التى يتوطأها الناس . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فيهما أن الحمولة المسخرة المذللة للحمل . والفرش : ما خلقه الله من الجلود والصوف مما يجلس عليه ويتمهد . (نقل القرطبى هذه الأقوال فى تفسيره ٣/ ٢٦٣٢) .

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ (النحل) والأوبار : جمع وبر ، وهو صوف الإبل والأرانب ونحوها وكذلك وبر الثعالب . والأثاث : أنواع المتاع من متاع البيت ونحوه .

« وسخرت لك الأنعام والحرث »

حين تسمع كلمة « الحرث » فافهم أن المراد بها هنا الزرع ، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد منك أن تعلم أن الله حين ينبت لك الأشياء بدون معالجتك ، فإنه يريد منك أيضًا أن تستنبت أشياء بمعالجتك ، وهذا لا يتأتى إلا بعملية الحرث .

والحرْثُ هو إهاجة الأرض ، فالتربة تكون جامدة ، فلابُدَّ أن يُهيجها الإنسان بالحرث ، أى : أن تَفُكَّ يبوستها[1] وتلاصق ذراتها ، لأن تلاصق ذرات التربة لا يصلح أن يكون بيئة للنبات ؛ لأن النبات يحتاج إلى الماء ، ويحتاج إلى الهواء ، ويحتاج من الإنسان أن يُمهِّد للشعيرات البسيطة أن تخرج ، وتجد تربة سهلة تتحرك فيها إلى أن تقوى .

إذن : فالحرث يثير الأرض ، ويجعلها لينة متفتتة حتى تستطيع البذرة أن تنمو ؛ لأن الله قد أودع فى فلقتى كل بذرة مقومات الحياة إلى أن يوجد لها جذر يأخذ مقومات الحياة من الأرض ، وكلما قوى الجذر فى النبات فإن الفلقتين تضمحلان وتصيران مجرد ورقتين ، فأين ذهب حجم الفلقتين ؟

لقد قامت الفلْقتان بتغذية النبتة إلى أن استطاعت النبتة أن تتغذى بنفسها من الأرض ، ولا يمكن حدوث ذلك إلا إذا كانت الأرض محروثة .

---

(١) يبست الأرض : ذهب ماؤها ونداها ، وأرض يَبَسٌ : صلبة شديدة . واليَبَس : المكان يكون رطبًا ثم ييبس ، ومنه قوله ـ تعالى : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا ﴿٧٧﴾ ﴾ (طه) . أى: طريقًا جافًا صُلْبًا بعد رطوبته . (لسان العرب ـ مادة : يبس) .

لذلك يقولون : إن الأرض الطينية السوداء تكون صعبة وغير خصبة .

ويُقال : إن الأرض الرملية أيضًا غير خصبة ، لماذا ؟

لأننا نريد صفتين اثنتين فى الأرض :

الصفة الأولى : أن تكون الأرض صالحة أن يتخللها الماء ليشرب الزرع.

والصفة الأخرى : ألا تُسرب الماء بعيدًا .

فإذا كانت الأرض طينية فإن جذور الزرع تختنق وتتعطن[1]، وإذا كانت رملية فإن الماء يتسرب بعيدًا .

لذلك نحتاج فى الزراعة إلى أرض بين سوداء ورملية ، أى : أرض صفراء.

والحق ـ سبحانه ـ يتكلم عن الزرع فإنه يقول « الحرث » ، وذلك حتى يلفتنا إلى أن من يريد أن يأخذ زرعًا لابد أن يجدَّ ويحرث الأرض .

وهو ـ سبحانه ـ القائل :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(الواقعة)

فصحيح أن الإنسان يقوم بحرث الأرض ورمى البذرة ، وربما تعهد الزرع بالعناية والرى ، ولكن ليس فى كل ما يفعله مهمة خَلْق ، بل إن الله ـ سبحانه

---

(١) العطن : الفساد وإنتان الرائحة ، ورجل عطين : مُنتن البشرة ، ويقال : إنما هو عطينة إذا ذُمَّ فى أمر . أى : منتن كالإهاب المعطون .

وتعالى ـ هو خالق كل شيء ، ولو كنت تزرع بقدرتك فأتِ ببذرة من غير خلق الله ، وأرض لم يخلقها الله ، وماء لم يُنزِله الله من السماء .

فعملك أيها الإنسان أن تهيج الأرض وتثيرها . وتأتى بالبذر الذى خلقه الله فى الأرض التى خلقها الله ، وتسقيها بالماء الذى خلقه الله ، وتكبر فى الهواء الذى خلقه الله .

ثم يقول رب العزة فى الحديث القدسى الذى نحن بصدده :

« **وتركتُك ترْأَسُ(١) وتَرْبَع(٢)** »

إن الله ـ سبحانه ـ هو الذى يعطى الملْك ، فلو دقَّق كل منَّا النظر إلى مُجْريات الأمور ، لوجد أن الله هو الذى يُؤتى ، والله هو الذى ينزع ، والله هو الذى يُعِزّ ، والله هو الذى يُذِلّ .

إن إيتاء الملْك عملية تحتاج إلى تحضير بشرى وبأسباب بشرية ، وأحيانًا يكون الوصول إلى الحكم عن طريق الانقلابات العسكرية أو السياسية .

وكذلك نَزْعُ الملْك يحتاج إلى نفس الجَهْد .

---

(١) رأس القوم يرأسهم ، وهو رئيسهم . والرئيس : سيد القوم . ورأس كل شيء : أعلاه . (لسان العرب ـ مادة : رأس) .

(٢) ربعهم يربعهم ربعًا : أخذ رُبع أموالهم . وربعهم : أخذ ربع الغنيمة ، فمعنى تربع فى الحديث : ألم أجعلك رئيسًا مطاعًا ؟ (لسان العرب ـ مادة : ربع) .

إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يوضح لنا أن هذا ليس أمرًا صعبًا على قدرته اللانهائية ، لأنه ـ سبحانه ـ لا يتناول الأفعال بعلاج أو بعمل ، إنما هو سبحانه يقول « كُنْ » فتنفعل الأشياء لإرادته .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ (١) :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾

(آل عمران)

فإياك أيها المؤمن ـ أن تظن أن أحدًا قد أخذ الملك غَصْبًا من الله ، إنما المُلْك يريده الله لمن يُؤدِّب به العباد ، وإن ظلم الملِك فى التأديب فإن الله يبعث له منْ يظلمه .

---

(١) من بركات هذه الآية الكريمة مما أرشد إليه رسول الله ﷺ ، ما رواه الطبرانى عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ افتقده يوم الجمعة ، فلما صلى رسول الله ﷺ أتى معاذًا فقال : «يا معاذ ما لى لم أرك ؟ » فقال : ليهودى علىَّ وقية من تبر ، فخرجت إليه فحبسنى عنك ، فقال ﷺ : « ألا أعلمك دعاء تدعو به فلو كان عليك من الدين مثل صبير أداه الله عنك ، فادع الله يا معاذ : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) ﴾ (آل عمران) ، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، تعطيهما من تشاء ، وتمنع منهما منْ تشاء، ارحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك » أورده السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور (٢/ ١٧٢) .

فلا يظن أحد أن هناك إنسانًا قد ملك شيئًا ، أو جاهًا فى هذه الدنيا بغير مراد الله فيه ، فكل إنسان يملك بما يريده الله له من رسالة ، فإذا انحرف العباد فلا بد أو يُولِّى الله عليهم مَلِكًا ظالمًا ، لماذا ؟

لأن الأخيار قد لا يُحسنون تربية الناس ، فإن رأيتَ واحدًا قد أخذ المُلْك وهو ظالم ، فاعلم أن الله قد جاء به ليُرَبِّى به المملوكين ، وسبحانه لا يربى الأشرار بالأخيار ، لأن الأخيار لا يعرفون كيف يُربُّون ، وقلوبهم تمتلئ بالرحمة[1] .

ولذلك يُعلِّمنا الحق ـ سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي[2] بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) ﴾

(الأنعام)

---

(١) فالله ـ سبحانه ـ يعلم من قلوب المؤمنين الرحمة والرأفة والرقة والعفو والصفح ، ولذلك عند تطبيق حد الزنا مثلاً قال ـ سبحانه : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ (النور) .

(٢) قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٢/ ١٧٧) : « نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعضهم ببعض جزاء على ظلمهم وبغيهم » .

وقد أورد السيوطى آثارًا فى تفسير هذه الآية منها :

ـ قال الأعمش : إذا فسد الناس أُمِّر عليهم شرارهم ، عزاه لأبى الشيخ .

ـ قال كعب الأحبار : إن لكل زمان ملكًا يبعثه الله على نحو قلوب أهله ، فإذا أراد صلاحهم بعث عليهم مصلحًا ، وإذا أراد هلكتهم بعث عليهم مترفهم . عزاه للبيهقى . =

والخيِّر لا يدخل المعركة ، بل يشاهد الصراع من بعيد ، ويجرى كل شىء بعلم الله ؛ لأنه ـ سبحانه ـ له مُلْك السماوات والأرض ، وهو الذى يُحيى ويُميت ، فإياك أن تُفتن فى غير خالقك أبدًا ؛ لأن الخَلْق مهما بلغ من قدرته وطغيانه ، لا يستطيع أن يحمى نفسه من أغيار الله فى كونه ؛ ولذلك فليأخذ المؤمنُ الله وليًا له ونصيرًا .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) ﴾ (البقرة)

أى : إياكم أن تُغضبوا ربكم فى أىِّ عمل من هذه الأعمال ، وكُنْ أيها المسلم فى هذه التقوى على يقين من أنك ملاقى الله ، ولا تشك فى هذا اللقاء أبدًا ، وما دُمْتَ ستتقى الله ، وتكون على يقين أنك تلاقيه لم يبق لك إلا أن تُبشَّر بالجنة .

والحق ـ سبحانه ـ حينما تحدث عن الصبر والصلاة قال :

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦) ﴾ (البقرة)

فَمَنْ خشع بقلبه لله فهو يُقبل على الصلاة بحب وإيمان ورغبة ، وهؤلاء هم الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم .

= ـ قال الحسن : إن الله قال لموسى : يا موسى أنبئهم أن رضاى عنهم أن أستعمل عليهم خيارهم ، وأن سخطى عليهم أن أستعمل عليهم شرارهم . عزاه للبيهقى .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ لم يقُلْ : الذين تيقَّنوا أنهم مُلاَقُو ربهم . لماذا لم يستخدم الحق ـ تعالى ـ لفظ اليقين ، وأبدله بالظن ؟

لأن مجرد الظن أنك مُلاقٍ الله ـ سبحانه وتعالى ـ كافٍ أن يجعلك تلتزم بالمنهج ، فما بالك إذا كنت مُتيقِّنًا ، فمجرد الظن يكفى لتقى نفسك من عذاب عظيم .

ويقول المعرى[1] فى آخر حياته :

زَعَم المنجِّمُ والطَّبِيبُ كِلاَهُما ... لا تُحْشَرُ الأجسادُ قُلْتُ إليكُما

إنْ صَحَّ قَوْلُكُما فَلسْتُ بخاسرٍ ... أو صَحَّ قَوْلى فَالخَسَارُ عَليكُما

فكل مُكذبٍ بالآخرة خاسر ، والنفس البشرية لا بُد أن تحتاط للقاء الله ، وأن تعترف أن هناك حَشْرًا ، وتعمل لذلك .

والحق ـ سبحانه ـ يقول :

﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (البقرة)

والرجوع إلى الله ـ سبحانه ـ أمر يقينى ، فما دُمْتَ قد جئت إلى الدنيا قد

---

(١) هو : أبو العلاء أحمد بن عبد الله ، شاعر فيلسوف ، ولد فى معرة النعمان عام ٣٦٣ هـ ، كان نحيف الجسم ، عَمِىَ فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. كان يحرم إيلام الحيوان، ولم يأكل اللحم خمسًا وأربعين سنة ، توفى عام ٤٤٩ هـ. راجع ترجمته فى كتاب (الأعلام لخير الدين الزركلى ١/ ١٥٧) .

خلقك الله ، فأنت ـ لا محالة ـ سترجع إليه ، وهذا اليوم يجب أن نحتاط له حَيْطة كبرى ، وأن نترقبه ، لأنه يوم عظيم .

والحق ـ سبحانه ـ يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ(١) السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ(٢) كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ(٣) وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ② ﴾ (الحج)

ويقول ـ جل جلاله :

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ⑰ ﴾ (المزمل)

إذا كان هذا حالنا يوم القيامة(٤) ، فكيف لا يكفى مجرد الظن لأن نتمسك

---

(١) الزلزلة والزَّلزال : تحريك الشيء . قال أبو اسحق فى قوله ـ عز وجل : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① ﴾ (الزلزلة) ؛ والمعنى : إذا حُرِّكت حركة شديدة ، والزلازل أيضًا : الشدائد والأهوال . وفى الحديث : اللهم اهزم الأحزاب وزلزلهم ، كناية عن التخويف والتحذير ، أى : اجعل أمرهم مضطربًا متقلقلاً ؛ غير ثابت . (لسان العرب ـ مادة " زلل) .

(٢) الذَّهْل : تركك الشيء تناساه على عمد أو يشغلك عنه شُغْل . (لسان العرب ـ مادة :ذهل) .

(٣) أى : سكارى من هولها ومما يدركهم من الخوف والفزع ، وقال أهل المعانى : وترى الناس كأنهم سكارى . (تفسير القرطبى ٦/ ٤٥٣٧) .

(٤) عن أبى سعيد الخدرى قال . قال النبى ﷺ : « يقول الله يوم القيامة : يا آدم ـ ابعث بعث النار . فيقول : يا رب ، وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون . فعند ذلك يشيب الوليد ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ② ﴾ (الحج) قال : فشق ذلك على الناس فقالوا : يا رسول الله =

بمنهج الله ، ونحن نحتاط لأحداث دنيوية لا تساوى شيئًا بالنسبة لأهوال يوم القيامة .

إن الظن هنا بأننا سنلاقى الله ـ تعالى ـ يكفى لأن نعمل له ألف حساب .

والحق ـ سبحانه ـ يقول عن خسارة الذين لا يؤمنون بلقاء الله :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا(١) فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ(٢) عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١) ﴾ (الأنعام)

قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ؛ لأنهم باعوا الآجل الطويل العمر بالعاجل القصير العمر ، والعاقل لا يحب الخسارة ؛ لذلك نجده يوازن دائمًا ، ويقارن بين ما يبذله من جهد والعائد الذى سيأتى إليه.

أما الذين كفروا بلقاء الله فهم قد خسروا أنفسهم، لأنهم لم يوازنوا بين حياتين . حياة مظنونة ، وحياة متيقنة ؛ لأن مدة حياتنا الدنيا مظنونة غير متيقنة .

= من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ويبقى الواحد ! فأينا ذلك الواحد ؟ فقال : من يأجوج ومأجوج ألف . ومنكم واحد ، وهل أنتم فى الأمم إلا كالشعرة السوداء فى الثور الأبيض ؟ أو كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود ؟ » أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٣٠) ومسلم فى صحيحه (٢٢٢) كتاب الإيمان .

(١) فرطنا : معناه ضيَّعنا ، وأصله التقدم ، يُقَال : فرط فلان أى : تقدم وسبق إلى الماء ، ومنه الفارط أى : المتقدم للماء ، وقيل « فرطنا » أى : جعلنا غيرنا الفارط السابق لنا إلى طاعة الله وتخلفنا . (تفسير القرطبى ٣/ ٢٤٩٨) .

(٢) الأوزار : الذنوب ، جمع وزر . قال أبو عبيد : ويقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع احمل وزرك ، أى : ثقلك ، ومنه الوزير لأنه يحمل أثقال ما يسند إليه من تدبير الولاية ، والمعنى أنهم لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها . (تفسير القرطبى ٣/ ٢٤٩٨) .

إننا لا نعرف كم سنحيا فيها ، فمتوسط عمر الإنسان على الأرض هو سبعون عامًا على سبيل المثال ، ولكن أحدًا لا يعرف كم عمره فى الدنيا بالضبط ، وله أجلٌ محدود ، إنه فانٍ وذاهب وميت .

لكن حياة الآخرة متيقنة لا أجل لها ، إنها دائمة ونعلم أن نعيم الدنيا بالنسبة للإنسان هو على قدْر الأسباب الموجودة لديه .

أما نعيم الآخرة فهو على قدر طلاقة قدرة المسبِّب ـ سبحانه ـ وهو الله ، وعلى هذا تكون خسارة الذين كفروا كبيرة ، وفادحة ، ودامية ؛ لأنهم لم يتاجروا مع الله .

والذين كفروا ، كان كفرهم وتكذيبهم مُوصِّلاً إلى الخسران ، فمجىء الساعة بغتة ليس هو نهاية المطاف ، ولكنه وصولٌ إلى أول الخسران ؛ لأن خسرانهم لا ينتهى من فور مجىء الساعة ، ولكنه يبدأ لحظة مفاجأة الساعة لهم.

فهم يُفاجأون بوقوع ما كانوا يُكذِّبون به ، ويعلمون جيدًا أن ما صنعوه فى الدنيا لا يستوجب إلا العذاب .

وأيضًا فإن من عمل أعمالاً نافعة وليس فى باله الله ، فالله ـ سبحانه ـ لا يمنعه ثواب ما عمل ، بل يعطيه فى الدنيا ، لأنه لا يؤمن بالآخرة .

والحق ـ سبحانه ـ يقول :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[1] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ[2] الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(النور)

فالذين كانوا يؤمنون به ـ سبحانه ـ يطمئنون على أن جزاءه قد جاء، والذين لم يكونوا يؤمنون به يُفاجأون بوجوده ـ سبحانه ـ وبالجزاء والحساب ، فَفُوجئوا بأمر لم يكن فى بالهم ، ولم يعملوا له أى حساب .

فالكافر يُفاجأ بوجود الله ـ سبحانه ـ لأن هذا شىء لم يكن فى حُسبانه .

---

(١) القيعة : جمع قاع . والقاع : ما انبسط من الأرض واتسع ، ولم يكن فيه بنت ، وفيه يكون السراب . وأصل القاع : الموضع المنخفض الذى يستتر فيه الماء . (تفسير القرطبى ٦/ ٤٨١٩) .

(٢) ورد وصف الله تعالى بأنه سريع الحساب فى عشر آيات :

(البقرة : ٢٠٢) ، (آل عمران : ١٩ ، ١٩٩) ، (المائدة : ٤) ، (الأنعام : ١٦٥) ، (الأعراف : ١٦٧) ، (الرعد : ٤١) ، (إبراهيم : ٥١) ، (النور : ٣٩) ، (غافر : ١٧) .

قال القرطبى فى تفسيره (١/ ٩١٤ ، ٩١٥) : « المعنى فى الآية أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سريع الحساب ، لا يحتاج إلى عَد ، ولا إلى عقد ، ولا إلى إعمال فكر كما يفعله الحُسَّاب، فالله عز وجل عالم بما للعباد وما عليهم ، فلا يحتاج إلى تذكر وتأمل ، إذ قد علم للمُحاسب وعليه ؛ لأن الفائدة فى الحساب علم حقيقته .

وقيل : سريع المجازاة للعباد بأعمالهم .

وقيل : المعنى : لا يشغله شأن عن شأن ، فيحاسبهم فى حالة واحدة ، كما قال ـ وقوله الحق: ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ... ﴿٢٨﴾ ﴾ (لقمان) .

قال الحسن : حسابه أسرع من لمح البصر . =

والحق ـ سبحانه ـ يقول عن الكافرين :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا(١) عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (الأعراف)

ويقول فى آية أخرى عن المنافقين :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ(٢) أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (التوبة)

= وقيل : هو أنه إذا حاسب واحداً فقد حاسب جميع الخلق ، وقيل لعلى بن أبى طالب : كيف يحاسب الله العباد فى يوم ؟ قال : كما يرزقهم فى يوم .ومعنى الحساب ؛ تعريف الله عباده مقادير الجزاء على أعمالهم ، وتذكيره إياهم بما قد نسوه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴿٦﴾ ﴾ (المجادلة) .

وقيل : معنى الآية : سريع بمجىء يوم الحساب ، فالمقصد بالآية الإنذار بيوم القيامة .

قلت : والكل محتمل ، فليأخذ العبد لنفسه فى تخفيف الحساب عنه بالأعمال الصالحة ، وإنما يخفُّ الحساب فى الآخرة على من حاسب نفسه فى الدنيا » أ . هـ .

(١) الإفاضة : التوسعة ، يقال : أفاض عليه نعمه ، قال القرطبى فى تفسيره (٣/ ٢٧٣٢) : «تبين الآية أن ابن آدم لا يستغنى عن الطعام والشراب وإن كان فى العذاب » .

(٢) قبض الطائر جناحه : جمعه . وتقبضت الجلدة فى النار : انزوت ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ (التوبة) ، أى : عن النفقة . وقيل : لا يؤتون الزكاة . (لسان =

وعن هؤلاء وأولئك يقول ـ تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (ص)

لذلك يُوجِّه الحق ـ سبحانه ـ نداءه لعباده المؤمنين ، فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (الحشر)

***

= العرب ـ مادة : قبض) ، وفى تفسير القرطبى (٤/ ٣١٢٤) « قبض أيديهم عبارة عن ترك الجهاد ، وفيما يجب عليهم من حق » .

الظَّلُومُ الجَهُول

١٧ قال الله ـ عز وجل ـ فى حديثه القدسى :

« يَا آدَمُ ، إنِّى عَرَضْتُ الأمَانَةَ علَى السَّمَاوات وَالأرْضِ، فَلَمْ تُطِقْهَا ، فَهَل أنتَ حَامِلها بِمَا فِيهَا ؟

قال آدم : ومَالِى فِيهَا ؟

قال تعالى : إنْ حملْتَهَا أُجِرْتَ ، وإنْ ضيَّعتَهَا عُذِّبْتَ .

فقال آدم : قَدْ حَملتُها بِمَا فيها .

فَلَمْ يَلْبثْ فى الجنة إلاَّ مَا بَيْن الصَّلاة الأُولى إلى العَصْر ، حتَّى أخرجَهُ الشَّيطانُ مِنْها »(١) .

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ (الأحزاب)

---

(١) أورده المتقى الهندى فى كنز العمال (٦/ حديث ١٥١٤٢) وعزاه لأبى الشيخ من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ، وأورده ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٢) من طريق سعيد ابن جبير عن ابن عباس، وساقه ، ثم قال : « وقد روى الضحاك عن ابن عباس قريبًا من هذا وفيه نظر وانقطاع بين الضحاك وبينه والله أعلم » .

ولفظه عن ابن عباس من طريق ابن جبير الذى أورده ابن كثير وعزاه لابن جرير الطبرى : «عرضت على آدم فقال : خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك ، وإن عصيت عذبتك . قال: قبلت فما كان إلا مقدار ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة » .

وأورد طريق الضحاك عن ابن عباس القرطبى فى تفسيره (٨/ ٥٥٢٢) وعزاه للترمذى الحكيم.